

حاملو الحقائب^{*}

أ. أحمد شقرون

باحث بالمركز الوطني للدراسات والبحث في
الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954

* : « Les porteurs de valises » in La guerre d'Algérie, Patrick Eveno et Jean Planchais, Ed. Laphomic, Alger, 1990.

ما هو الشيء الذي يكون قد دفع الفرنسيين إلى تبني قضية غير قضيتهم كما تبدو لأول وهلة؟ الجواب بسيط: تقصير اليسار، والدليل على ذلك، كما يلاحظ، أن "حاملي الحقائق"* ينحدرون غالبا من هذا التيار. إن نداءات وتحذيرات المؤرخ أندري ماندوز (André Mandouze)، التي أطلقها قبل الصراع بكثير، حول الوضع في الجزائر، لم تتوقف. إن تيار اليمين، في واقع الأمر، لم يؤمن بالمعتقدات المضادة للاستعمار. وعليه فإن "تمرد" 1954 لم يفاجئ سوى الذين كانوا عن النداءات معرضين وهم الأغلبية. إن "اليسار المحترم"، كما عرفه أحد أتباع سارتر (Sartien)، سيكون غائبا عن هذا الصراع لمدة طويلة.

في عام 1954، لم يوجد غير التروستكيين (Trotskistes) للمطالبة باستقلال الجزائر. ولما رفع النقاب، فيما بعد، عن التعذيب، سارعت السلطات بكل أطرافها إلى نفيه معتبرة إياه مجرد "تجاوزات" (Bavures)، إلا أن الأدلة موجودة: تقارير السيد ميري (Mairey)، تقارير المنظمات الإنسانية الدولية. منذ شهر جانفي 1955، ندّد كلّ من كلود بوردي في "France-Observateur" وفرانسوا موريل في "l'Express" بممارسة التعذيب في الجزائر.

* : تكمن مهمتهم الأساسية في جمع ونقل الأموال والمنشورات والوثائق المزيّفة إلى أعضاء فيدرالية جبهة التحرير بفرنسا، ولذا أطلق عليهم اسم "حاملي الحقائق".

إن الكتاب الذي نشره بيار هنري سيمون بدار النشر (Le Seuil)، في 1957، يعبر أيما تعبير عن التمزق الذي تعاني منه الأوساط المسيحية بالنسبة لأعمال التعذيب.

سيستمر التنديد بالتعذيب طوال الصراع رغم عمليات الحجز ورفع الدعاوي القضائية ضد الصّحف الجريئة والناشرين المؤمنين بالقضية. ذلك ما سيتذكره واضعوا القنابل التابعين لمنظمة (OAS) حينما يختارون أهدافهم...

رغم صدور المؤلفات والبيانات ظلّ يخيم على فرنسا جوّ من القمع، اللامسؤولية، اللامبالاة وعنصرية كامنة.

وهكذا، فإنه ضمن أطراف اليسار وضمن "الخيارين"، يتم تجنيد المتعاطفين النشيطين مع القضية الجزائرية، المثقفين ذوو "الضمائر الشقية"، المسيحيين التقدميين، القساوسة العلمانيين (Prêtres-ouvriers)، الثروتسكيين، أصحاب "اليمن الجديد"، الشيوعيين الذين حادوا عن خط الحزب.

في بداية الصراع، كانت الشخصيات المنعزلة هي التي توازر الجزائريين، مثل جان جاك روست (J.J. Rousset)، هذا الموظف الشاب الذي وضع شقيقه تحت تصرّف الثّوار (les rebelles)، وكانت أمه "Madame Mère" كما يدعوها نزلأؤها، كانت تضرب المنشورات على الآلة الرافنة. كما كان القساوسة الذين يدركون عوز المهاجرين، يأوون المناضلين العاملين في السرية

(Clandestins) حبًا للخير. غير أن الشبكات (réseaux) ستلتف حول فرانسيس جانسون (Francis Jeanson) *.

لقد نشر هذا الفيلسوف صحبة زوجته كوليت (Colette)، منذ 1955، كتابا بعنوان "الجزائر الخارجة عن القانون" (l'Algérie hors la loi)، الذي سيصبح، حسب قول جان دانيال، "مرجعا للشوار" (le bréviaire des révolutionnaires).

لقد شرع جانسون، منذ 1956، في تقديم الخدمات (للأفان): إن إيواء جزائري قد يعادل تخليص رجل. وعلاوة على ذلك، فإنه قام بنقل مسؤولي جبهة التحرير الوطني وتنظيم عبور سري للحدود الإسبانية الفرنسية.

كل ذلك جرى بفضل حنكة كبيرة، وقد كان فرانسيس جانسون، إلى جانب ذلك، يعيش حياة عامة. إن هذا الوضع لن يستمر دون مخاطر. في جويلية 1957، تم تعيين عمار بوداود مسؤولا جديدا عن فدرالية الأفان بفرنسا. إن الاتصال بين الفيلسوف الوجودي والأمازيغي "المتشدد"، المنحدر من المنظمة الخاصة، كان حادًا في البداية، إلا أن الرجلين اتفقا على تخطي، نوعا ما، الحواجز التي فرضها العمل السري.

* : فيلسوف فرنسي من مواليد 1922، التحق بالقوات الفرنسية الحرة إبان الحرب العالمية الثانية. شارك مشاركة فعالة في الحرب التحريرية فكريا وماديا حيث قام بتأسيس شبكته المعروفة لدعم الثورة الجزائرية (المترجم).

إن تاريخ 12 أكتوبر 1957 يعتبر لدى معظم "حاملي الحقائق" التاريخ الحقيقي لتأسيس الشبكة، التي اندمجت، في ذلك اليوم، مع شبكة القساوسة العلمانيين. كانت تقوم الشبكة بتحويل، إلى تونس، 500 مليون فرنك فرنسي* لحساب الأفلان. إن الشبكة، التي كانت تتوفر على جهاز متميز للأوراق المزيفة، امتدت إلى مدن ليون، غرونوبل ومرسيليا...

في خريف 1957، قدم الصحفي روبر بارات (Robert Barrat) لفرانسييس جونسون شخصا عجيبا: هانري كوريال (H. Curiel) مصري شيوعي، يهودي، ابن مصرفي وثوري محترف**. ستساعد العلاقات التي حافظ عليها، في الأوساط المصرفية، على تطوير نظام تهريب الأموال لحساب الأفلان.

في 25 أوت 1958، أصبحت كل الأهداف المدنية، في فرنسا، تحت رحمة مناضلي جبهة التحرير الوطني. لقد قرّر الجزائريون نقل الحرب إلى فرنسا. لقد كاد الأمر أن يتحول إلى القيام بعمليات فدائية "دون تمييز" (à l'aveuglette)، حسب ما أدلى به فرانسييس جانسون. ولما اكتشفت هذه المشاريع، هدّد هذا الأخير بوقف الشبكة في حال وقوع ضحايا. لقد قال لعمار بوداود: "كل عملي، منذ عامين، كان يقوم على هذا الاعتقاد المتمثل في الحفاظ على الصداقة الفرنسية-الجزائرية، قد تنسفون كل شيء [إن أقدمتم على ذلك]".

* : ما يعادل حوالي 10 حقائق ممتلئة بالفلوس (المترجم).

** : اغتيل هانري كوريال يوم 04 ماي 1978 ولم تعثر الشرطة على الجناة.

ستراعي قيادة الأفلان انتقادات جونسون. ولن يتم التعرض للسكان المدنيين.

الشبكة تعمل على قدم وساق و"حاملو الحقائق" لا يغمض لهم جفن... سيتم إنشاء بعض الشبكات الفرعية بسويسرة، بلجيكا وألمانيا حيث تتوفر جبهة التحرير على جهاز استخباري بدوسلدورف (Düsseldorf). في هولندا، كان ميشال رابتييس (Michel raptis)، المدعو "بابلو" (Pablo) [...] يقوم بضرب نقود فرنسية لصالح الأفلان إلا أن الشرطة وضعت حدًا لهذه العملية.

بعد قدوم الجمهورية الخامسة وبعد "سلم الشجعان"، يقترح ديغول "تقرير المصير"، وفي هذه الفترة التي يطبعها تطوّر الفكر الديغولي، يستمر تعذيب المناضلين الجزائريين بمقرلا "DST" (الدفاع عن الأمن القطري).

يتم حجز كتاب "الغرغرينة" (La Gangrène) بمجرد صدوره. وتتم اعتقالات في أوساط "حاملو الحقائق". لكنه في شهر فيفري الموالي، ومع موجة جديدة من الاعتقالات، ينكشف أمر شبكة جونسون للعيان. ويتعد جونسون عن "العمل النشط" (Travail actif) لأسباب أمنية. وأمام إصرار الجرائد على إغفال الجانب السياسي لمسعى "حاملو الحقائق"، ينظم هذا الأخير ندوة صحفية سرية في قلب العاصمة باريس، ويتم في هذا الإطار،

اعتقال الكاتب جورج أرنو (Georges Arnaud) الذي نشر تقريراً عن هذه الندوة في جريدة (Paris Presse).

خلال محاكمته، جعل جورج أرنو محاكميه "هزأة". ولَمَّا علمت بذلك المحكمة العسكرية التي كانت تنوي محاكمة، في 05 سبتمبر 1960، ستة جزائريين وثمانية عشر "حامل حقائب"، بسبب المساس بالأمن الخارجي للدولة، عملت هذه الأخيرة على إبطال كل مظاهرة سياسية للمتهمين.

إن الأمر يعني إغفالاً لـ "26" محامياً، لاسيما المحاميان فرجاس ودوما (Dumas) رغم بعض الخلافات التكتيكية: لقد تحولت المحاكمة إلى محاكمة حرب الجزائر.

لقد أدى بول تتجان (Paul Teitgen)، الأمين العام السابق لمحافظة الشرطة لمدينة الجزائر، بشهادة مأساوية: نعم، التجاوزات وأعمال التعذيب هي التي كانت وراء استقالتني، وفي اليوم الموالي، كان لرسالة جان بول سارتر، التي تلاها الأستاذ دوما على المحكمة، مفعول قبلية.

وفي الواقع فإن "أب" الوجودية يقف في صفّ "حاملي الحقائب". إن المحاكمة لم تستفك بعد من دهشتها حتّى لجأ المحامون إلى الاستماع إلى

شهادة الموقعين على بيان لا "121" حول "الحق في العصيان" * (le droit à l'insoumission).

وبعد بضعة أيام، انتهت محاكمة شبكة جنسون، وأصبح الجميع يعلم الآن بوجود فرنسيين يساعدون الجزائريين لأسباب سياسية.

إن اعتقال هنري كوريال، ديدار فوزي وإيتيان بولو، فيما بعد، لن يوقف عمل الشبكات: البديل مضمون.

افتتحت المحاكمة الأخيرة "حامل الحقائق" يوم 09 جانفي 1962 حيث كاتب [الشاعر] آراقون (Aragon) محامي المتهم قائلا: "أرجو منكم، إن سمحتم، إبلاغ القس دافيزيس (Davezies) الذي لم يكن لي الشرف التعرف عليه، عن اعترافي بما فعله، وبما يمثله، والذي يصبّ في رصيد وطننا، والذي قد ينسي يوما بأنه كان هناك جلادون يدّعون أنهم فرنسيون".

قال القس دافيزيس عن 19 مارس، تاريخ وقف إطلاق النار: "في هذا اليوم، فهمت أن للرجال القدرة في صنع تاريخهم".

* : تم تحرير هذا البيان الذي تم تعديله فيما بعد، من قبل موريس بلانشو (Maurice Blanchot) وديوني ماسكولو (Dionys Mascolo) وفي 05 سبتمبر يتم نشره وقد جاء في مطلعته: "نحترم ونعتبر رفض حمل السلاح في وجه الشعب الجزائري مبررا" (المترجم).

لقد ترك "حاملو الحقائق" حقائبهم وسيتم الإغفاء عنهم في 1966.
لازال البعض يعتبرهم "خونة" والبعض الآخر يعتبرهم حاملي أمل لفرنسا
أخرى.